

عناصر المجتمع

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

عناصر المجتمع

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ - ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: عناصر المجتمع
إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة
نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى: 2009 م/ 1430هـ

عناصر المجتمع

دروس من فكر الشهيد

السيّد محمّد باقر الصدر قدس سره

مركز نون للتأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الالكتروني

www.almaaref.org


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمـد لله ربّ العالمين، وأفضـل الصـلوات على سـيّد الخلق محمّد وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين.

يعتبر الدين سـنّة تاريخيّة من الشكل الثالث، بمعنى أنّه اتجاه طبيعيّ يقبل التحدّي على المدى القصير، ويمكن فهم ذلك بعد تحليل عناصر المجتمع في القرآن الكريم. وقد طرح الشهيد السعيد صـيغتين لبناء العلاقات الاجتماعيّة، رباعيّة وثلاثيّة، تفترقان بعنصـر مرن، وهو العنصر الرابع فـي عمليّـة الاستخلاف. وهـذا العنصـر لـه دوره البارز والأساس في تشكيل المجتمعات، وفي البُنى الأساسيّة لشكل النظـم المطروحة والموجـودة في السـاحات الاجتماعيّة. فإلى أيّ مدى يؤثّر هذا العنصـر في البنـاء الفكريّ للنظم الاجتماعيّـة؟ وما هو مدى حضـوره فـي المنظومة الفكريّة التي يطرحها القرآن الكريم؟ وكيف نخرج بأنّ الدين عبارة

عن سنّة تاريخيّة؟ وإلى أيّ مجال ومدى يمكن تحدّي هذه السنّة التاريخيّة؟

أسئلة نجيب عنها في هذا البحث الذي بين يدي القارئ الكريم، فقد قمنا باختياره من كلام الشهيد، ثمّ تشذيبه من المكرّرات التي تستوجبها المحاضرات، مع التصرّف البسيط بالعبارة محافظة على وحدة السياق، وبالتقديم والتأخير المناسبين مع الإشارة لذلك. كلّ ذلك من محاضرتين للشهيد السيّد محمّد باقر الصدر (رضوان اللّه عليه) ألقاهما بتاريخ: ١٠ و١١/ جمادى الأولى / ١٣٩٩ هـ.

وقد حاولنا قدر الإمكان المحافظة على عبارات الشهيد السعيد، مع إضافة بعض العناوين للفقرات والأبحاث، وإعادة ترتيب لبعض الأبحاث المترامية، وجمعها في بحث واحد.

وقد تمّ طباعة هاتين المحاضرتين في كتاب المدرسة القرآنيّة، ويمكن مراجعة المجموعة الكاملة لمؤلّفات السيّد محمّد باقر الصدر/ دار التعارف للمطبوعات/ بيروت ـ لبنان/ ط. ١٩٩٠ م/ ج ١٣.

الأهداف

١. التعرّف إلى أنّ الدين سنّة تاريخيّة.

٢. تحليل عناصر المجتمع في القرآن الكريم.

٣. التفرقة بين المجتمعات البشريّة في العنصر المرن.

٤. التعرّف إلى صيغتين أساسيّتين في بناء العلاقات الاجتماعيّة.

تمهيد

من أجل أن نعرف كيف أنّ الدين سنّةٌ من سُنن التاريخ، وما هو دوره؟ ما هو موقعه؟ لماذا أصبح سنّةً من سُنن التاريخ؟ وأنه ليس مجرّد تشريعٍ وإنّما هو سنّة، أي أنه حاجةٌ أساسيّةٌ موضوعيّةٌ حاله حالَ قانون الزوجيّة بين الذكر والأنثى، هو سنّةٌ موضوعيّة، لماذا صار هكذا؟ وكيف صار هكذا؟ وما هو دوره كسنّةٍ تاريخيّةٍ من سُنن التاريخ؟ لكي نعرف ذلك يجب أن نأخذ المجتمع، نحلل عناصر المجتمع على ضوء القرآن الكريم، لنصل إلى مغزى قولنا إنّ الدين سنةٌ من سُنن التاريخ.

١ ـ الدين سنّةٌ تاريخيّة من الشكل الثالث

وأهمّ مصداقٍ يعرضه القرآن الكريم للشكل الثالث من السُنن[1] هو الدين. القرآن الكريم يرى أن الدين نفسَه سنّة موضوعيّة من سُنن التاريخ، وليس الدين فقط تشريعاً، ولهذا يعرض الدين على شكلين:

ألف ـ الدين شريعة

تارةً يعرضه بوصفه تشريعاً كما يقول علم الأصول، بوصفه إرادةً تشريعيّةً، مثلاً يقول:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[2]، هنا يبيّن الدين كتشريعٍ، كقرارٍ، كأمرٍ من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) تقدّم الشكل الثالث بأنّه شكل الاتجاه الطبيعيّ لا أنّه قانون صارم، والاتجاه يمكن تحدّيه، بينما القانون لا يقبل التحدّي أبداً.

(٢) الشورى/ من الآية١٣.

ب - الدين سنّة

لكن في مجالٍ آخر يبيّنه سنّةً من سُنن التاريخ، وقانوناً داخلاً في صميم تركيب الإنسان وفطرة الإنسان؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1].

هنا الدين لم يعد مجرّد تشريع، مجرّد قرارٍ من أعلى، وإنّما الدين هنا فطرةٌ للناس، هو فطرة الله التي فطر عليها الناس، ولا تبديل لخلق الله. هذا الكلام كلامٌ موضوعيٌّ خبريٌّ لا تشريعيٌّ إنشائيٌّ، لا تبديل لخلق الله، يعني كما أنّك لا يمكنك أن تنتزع من الإنسان أيّ جزءٍ من أجزائه التي تقوّمه، كذلك لا يمكنك أن تنتزع من الإنسان دينه. الدين ليس مقولةً حضاريّةً مكتسبةً على مرّ التاريخ، يمكن إعطاؤها، ويمكن الاستغناء عنها، لأنّها في حالةٍ من هذا القبيل لا تكون فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا تكون خلق الله الذي لا

---

(١) الروم/٣٠.

تبديل له، بل تكون من المكاسـب التي حصل عليها الإنسان، من خلال تطوّراته المدنيّة والحضاريّة على مرّ التاريخ.

القـرآن يريـد أن يقول بـأن الدين ليس مقولـةً من هذه المقولات، بالإمكان أخذها وبالإمكان إعطاؤها، الدين خَلْقُ الله ﴿فِطْـرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾. «لا» ليسـت ناهية، بل نافية، يعني هذا الدين لا يمكن أن ينفكّ عن خلق اللّه ما دام الإنسان إنسـاناً، فالدين يعتبر سنّة لهذا الإنسان. هذه سنّةٌ ولكنّها ليست سـنّةً صارمةً على مستوى قانون الغليان، سـنّة تقبل التحدّي على الشـوط القصـير، كما كان بإمكان تحدّي سـنّة النكاح، سنّة اللقاء الطبيعيّ والتزاوج الطبيعيّ، كما كان بالإمكان تحدّي ذلك عن طريق الشـذوذ الجنسيّ، لكـن على شـوطٍ قصـيرٍ، كذلك يمكننا أيضـاً تحـدّي هذه السـنّة على شوطٍ قصـيرٍ عن طريق الإلحاد، وغمض العين عن هذه الحقيقة الكبرى. بإمكان الإنسان أن يرى الشمس، أن يغمض عينه عن الشـمس ويلحـد ولا يرى هذه الحقيقة، ولكن هذا التحدّي لا يكون إلّا على شوطٍ قصيرٍ؛ لأنّ العقاب

سوف ينزل بالمتحدّي يعاقب بسنن التاريخ نفسها. وقد أشير إلى هذه الخاصية أيضاً بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾، هذه العبارة التي خُتمت بها الآية الكريمة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]

هذه الجملة الأخيرة إشارةٌ إلى أن هذه السنّة من الشكل الثالث، أي إنّ للناس أن يتّخذوا مواقف سلبيّة وإهماليّة تجاه هذه السنّة، ولكنّه إهمال على الشوط القصير لا على الشوط الطويل.

٢ ـ تحليل عناصر المجتمع

سوف نسعى لكي نحلل عناصر المجتمع على ضوء هذه الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

---

(١) الروم/٣٠.

عَلِيمٌ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

على ضوء هذه الآية التي تعطينا أروع وأدقّ وأعمق صيغةٍ لتحليل عناصر المجتمع، سوف ندرس هذه العناصر ونقارن ما بينها؛ لنعرف في النهاية أنّ الدين سنّة التاريخ، وليس مجرّد حكمٍ شرعيٍّ قد يطاع وقد يعصى.

عناصر المجتمع في القرآن

حينما نستعرض هذه الآية الكريمة نجد أنّ الله سبحانه وتعالى ينبّئ الملائكة بأنّه قرّر إنشاء مجتمعٍ على الأرض.

هناك ثلاثة عناصرٍ يمكن استخلاصها من العبارة القرآنية:

أولاً: الإنسان.

---

(١) البقرة/ ٢٩ و٣٠.

ثانياً: الأرض أو الطبيعة على وجهٍ عام.

ثالثاً: العلاقة المعنويّة التي تربط الإنسان بالأرض وبالطبيعة، وتربط من ناحيةٍ أخرى الإنسان بأخيه الإنسان، هذه العلاقة المعنوية التي سمّاها القرآن الكريم بالاستخلاف.

هذه هي عناصر المجتمع، الإنسان والطبيعة والعلاقة المعنوية التي تربط الإنسان بالطبيعة من ناحيةٍ، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان من ناحيةٍ أخرى، وهي العلاقة التي سميت قرآنيّاً بالاستخلاف.

ونحن حينما نلاحظ المجتمعات البشريّة؛ نجد أنّ المجتمعات البشريّة جميعاً تشترك بالعنصر الأوّل والعنصر الثاني. لا يوجد مجتمعٌ بدون إنسانٍ يعيش مع أخيه الإنسان، ولا يوجد مجتمعٌ بدون أرضٍ أو طبيعة يمارس الإنسان عليها دوره الاجتماعيّ. وفي هذين العنصرين تتّفق المجتمعات التاريخيّة والبشريّة.

وأما العنصر الثالث: وهو العلاقة، ففي كلّ مجتمعٍ علاقةٌ

كما ذكرنا ولكن المجتمعات تختلف في طبيعة هذه العلاقة، وفي كيفيّة صياغة هذه الطبيعة.

العنصر المرن في المجتمعات

فالعنصر الثالث هو العنصر المرن والمتحرّك من عناصر المجتمع. وكلّ مجتمعٍ يبني هذه العلاقة المعنوية التي تربط الإنسان من جانبٍ، بالطبيعة بالجانب الآخر، يبني العلاقة بشكلٍ قد يتّفق وقد يختلف مع طريقة بناء المجتمع الآخر لهذه العلاقة.

وهذه العلاقة التي هي العنصر الثالث، العنصر المرن والمتحرّك في تركيب المجتمع، لها صيغتان أساسيتان:

إحداهما: صيغة رباعيّة وقد أُطلق عليها اسم «**الصيغة الرباعيّة**».

والأخرى: صيغة ثلاثيّة.

ألف- الصيغة الرباعيّة

هي الصيغة التي ترتبط بموجبها الطبيعة والإنسان مع الإنسان. هذه أطراف ثلاثةٌ. فالعلاقة إذاً اتخذت صيغةً تربط بموجبها بين هذه الأطراف الثلاثة وهي: الطبيعة، والإنسان، مع أخيه الإنسان، ولكن مع افتراض طرفٍ رابعٍ أيضاً في هذه العلاقة، فأسميت هذه الصيغة بالصيغة الرباعيّة. الصيغة الرباعيّة تربط بين هذه الأطراف الثلاثة، ولكنّها تفترض طرفاً رابعاً، بُعداً رابعاً للعلاقة الاجتماعيّة، وهذا الطرف الرابع ليس داخلاً في إطار المجتمع، هو خارجٌ عن إطار المجتمع، ولكن الصيغة الرباعيّة للعلاقة الاجتماعيّة تعتبر هذا الطرف الرابع مقوّماً من المقوّمات الأساسيّة للعلاقة الاجتماعيّة، على الرغم من أنّه خارج إطار المجتمع، وهذه الصيغة الرباعيّة للعلاقة الاجتماعيّة ذات الأبعاد الأربعة هي التي طرحها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف.

الاستخلاف

الاستخلاف هو العلاقة الاجتماعيّة من زاوية نظر القرآن الكريم، وعند التحليل نجد أنّه ذو أربعة أطراف؛ لأنّ الاستخلاف يفترض مستخلِفاً أيضاً. لا بدّ من مستخلَف ومستخلَف عليه، ومستخلِف. فهناك إضافة إلى الإنسان، وأخيه الإنسان، والطبيعة، يوجد طرفٌ رابعٌ في طبيعة وتكوين علاقة الاستخلاف، وهو المستخلِف إذ لا استخلاف بدون مستخلِف، فالمستخلِف هو الله سبحانه وتعالى، والمستخلَف هو الإنسان وأخوه الإنسان، أي الإنسانيّة ككلّ، الجماعة البشريّة، والمستخلَف عليه هو الأرض، وما عليها، ومن عليها.

فالعلاقة الاجتماعيّة ضمن صيغة الاستخلاف تكون ذات أطرافٍ أربعةٍ، وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظرٍ معيّنةٍ نحو الحياة والكون، بوجهة نظرٍ قائلةٍ بأنّه لا سيّد ولا مالك ولا إله للكون وللحياة إلّا الله سبحانه وتعالى، وأنّ دور الإنسان في ممارسة حياته إنّما هو دور الاستخلاف والاستئمان، وأيّ

علاقةً تنشأ بين الإنسان والطبيعة، فهي في جوهرها ليست علاقة مالكٍ بمملوكٍ، وإنّما هي علاقة أمينٍ على أمانةٍ استؤمن عليها، وأيّ علاقةٍ تنشأ بين الإنسان وأخيه الإنسان، مهما كان المركز الاجتماعيّ لهذا أو لذاك، فهي علاقة استخلافٍ وتفاعلٍ، بقدر ما يكون هذا الإنسان أو ذاك مؤدّياً لواجبه بهذه الخلافة، وليست علاقة سيادةٍ أو ألوهيّةٍ، أو مالكيّةٍ.

ب - الصيغة الثلاثيّة

في مقابلها[1] يوجد للعلاقة الاجتماعيّة صيغة ثلاثيّة الأطراف، صيغة تربط بين الإنسان والإنسان، والطبيعة، ولكنّها تقطع صلة هذه الأطراف مع الطرف الرابع، تجرّد تركيب العلاقة الاجتماعيّة عن البُعد الرابع، عن الله سبحانه وتعالى، وبهذا تتحوّل نظرة كلّ جزءٍ إلى الجزء الآخر، داخل هذا التركيب، وداخل هذه الصيغة.

(١) (أي في مقابل) الصيغة الاجتماعيّة الرباعيّة الأطراف- التي صاغها القرآن الكريم تحت اسم الاستخلاف- ترتبط بوجهة النظر المعيّنة للحياة والكون.

وُجدت ألوانٌ مختلفةٌ للملكيّة وللسـيادة، سـيادة الإنسان على أخيه الإنسـان، بأشـكالها المختلفة، التي استعرضـها التاريخ بعد أن عطّل البُعد الرابع، وبعد أن افترض أنّ البداية هي الإنسـان، حينئذٍ تنوّعت على مسـرح الصـيغة الثلاثيّة أشكال الملكيّة، وأشكال سيادة الإنسان على أخيه الإنسان.

المقارنة بين الصيغتين

وبالتدقيق في المقارنة بين الصيغتين، الصيغة الرباعيّة والصـيغة الثلاثيّة، يتّضح أنّ إضافة الطرف الرابع للصيغة الرباعيّـة ليسـ مجـرّد إضـافة عدديّةٍ، ليس مجـرّد طرفٍ جديدٍ يُضـاف إلـى الأطراف الأخرى، بل إنّ هذه الإضـافة تُحدث تغييراً نوعيّاً في بُنية العلاقة الاجتماعيّة، وفي تركيب الأطراف الثلاثة الأخرى نفسـها. من هنـا ليس هذا مجرّد عمليـة جمع ثلاثةٍ زائد واحدٍ، بل هذا الواحد الذي يُضـاف إلـى الثلاثة سـوف يُعطـي للثلاثة روحـاً أخـرى، ومفهوماً آخر، سـوف يحـدث تغييراً أساسـيّاً في بنية هـذه العلاقة

ذات الأطـراف الأربعة كما رأينا، إذ يعود الإنســان مع أخيه الإنســان مجرّد شــريك في حمل هذه الأمانة والاستخلاف، وتعـود الطبيعة بكلّ ما فيها من ثـرواتٍ، وبكلّ ما عليها ومَن عليها، مجرّد أمانةٍ لا بدّ من رعاية واجبها وأداء حقّها. هذا الطرف الرابع هو في الحقيقة مغيّرٌ نوعيٌّ لتركيب العلاقة.

٣ ـ الاستخلاف سنّة تاريخيّة

إذاً أمامنــا للعلاقة الاجتماعيّة صــيغتان صــيغة رباعيّة وصــيغة ثلاثيّة. والقرآن الكريم آمن بالصيغة الرباعيّة كما رأينــا في الآية الكريمة. الاســتخلاف هو الصــيغة الرباعيّة للعلاقــة الاجتماعيّــة. لكــن القــرآن الكريــم رغم أنّــه آمن بالصــيغة الرباعيّة في المقام، اعتبر الصيغة الرباعيّة سنّةً من سنن التاريخ، كما رأينا في الآية السابقة كيف اعتبر الدين سنّةً من سُنن التاريخ، كذلك اعتبر الصيغة الرباعيّة للعلاقة الاجتماعيّــة ـ التي هي صــيغة الدين في الحيــاة ـ اعتبر هذه العلاقة بصيغتها الرباعيّة سنّةً من سنن التاريخ، كيف؟

أنحاء الصيغة الرباعيّة

هــذه الصيغــة الرباعيــة عرضهــا القــرآن الكريم على نحوين:

١ ـ عرضهـا تـارةً بوصفها فاعليّةً ربانيّـةً، من زاوية دور الله سـبحانه وتعالـى في العطـاء؛ وهذا هـو العرض الذي قرأنـاه ﴿ وَإِذْ قَـالَ رَبُّـكَ لِلْمَلاَئِكَـةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِـي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. هـذه العلاقة الرباعيّة معروضـةٌ في هـذا النصّ الشـريف باعتبارهـا عطاءً مـن الله، جعلاً مـن الله، يمثّل الدور الايجابيّ والتكريميّ من ربّ العالمين للإنسان.

٢ ـ وعرض الصـيغة الرباعيّة نفسـها مـن زاويةٍ أخرى؛ عرضـها بوصـفها وبنحـو ارتباطها مـع الإنسـان، بما هي أمرٌ يتقبّله الإنسـان، عرضـها من زاويةِ تقبّل الإنسان لهذه الخلافة، وذلك في قوله سـبحانه وتعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾[1].

(١) الأحزاب/٧٢.

العرض التكوينيّ للأمانة

الأمانــة هي الوجه التقبّليّ للخلافة. والخلافة هي الوجه الفاعلــيّ والعطائــيّ للأمانــة. الأمانة والخلافــة عبارةٌ عن الاستخلاف والاستئمان وتحمّل الأعباء، عبارة عن الصيغة الرباعيّــة. هــذه الصــيغة الرباعيّة تارةً نلحظهــا من زاوية ربطها بالفاعل وهو الله ســبحانه وتعالــى، فيأتي قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّــكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِــي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وأخرى نلحظها من زاوية القابل كما يقول الفلاسفة، من ناحية دور الإنسان في تقبل هذه الخلافة وتحمّل هذه الأمانة، فيأتي قوله ســبحانه وتعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَــالِ..﴾. وهذه الأمانــة التي تقبّلها الإنســان، وتحمّلها الإنسان، عُرضت على الإنســان فتقبّلها الإنسان بنفس هذه الآية الكريمة. هذه الأمانة أو هذه الخلافة، أو بالتعبير الذي قلناه: هذه العلاقة الاجتماعيّة بصــيغتها الرباعية، هذه لم تُعرض على الإنســان في هذه الآية بوصــفها تكليفاً أو طلباً، ليس المقصــود من عرضــها على الإنســان هو العرض على

مستوى التكليف والطلب، وليس المقصود من تقبّل الأمانة هو تقبّل هذه الخلافة على مستوى الامتثال والطاعة، ليس المقصود أن يكون هكذا العرض، وأن يكون هكذا التقبّل، بقرينة أنّ هذا العرض كان معروضاً على السماوات والأرض والجبال أيضاً، فمن الواضح أنّه لا معنى لتكليف السماوات والجبال، من ذلك نستنتج أنّه عرضٌ تكوينيٌّ لا عرضٌ تشريعيٌّ. هذا العرض معناه أنّ هذه العطيّة الربانيّة كانت تفتّش عن الموضع القابل لها في الطبيعة، الموضع المنسجم معها بطبيعته، بفطرته، بتركيبه التاريخيّ والكونيّ، الجبال لا تنسجم مع هذه الخلافة، السماوات والأرض لا تنسجم مع هذه العلاقة الاجتماعيّة الرباعيّة، الكائن الوحيد، الذي بحكم تركيبه، بحكم بنيته، بحكم فطرة الله التي قرأناها في الآية السابقة، كان منسجماً مع هذه العلاقة الاجتماعيّة ذات الأطراف الأربعة، التي بها تصبح أمانةً، تصبح خلافةً.

إذاً العرض هنا عرضٌ تكوينيٌّ، والقبول هنا قبولٌ

تكوينيٌّ، وهو معنى سنّة التاريخ، يعني أنّ هذه العلاقة الاجتماعيّة ذات الأطراف الأربعة، داخلةٌ في تكوينيّة الإنسان، وفي تركيب مسار الإنسان الطبيعيّ والتاريخيّ.

تحدّي الأمانة

ونلاحظ أنّه في هذه الآية الكريمة أيضاً، جاءت الإشارة إلى هويّة هذه السنّة التاريخيّة، وأنّها سنّةٌ من الشكل الثالث، سنّةٌ تقبل التحدّي وتقبل العصيان، ليست من تلك السُنن التي لا تقبل التحدّي أبداً ولو لحظةً، لا.. هي سنّةٌ، هي فطرةٌ ولكن هذه الفطرة تقبل التحدّي.

كيف أشار القرآن الكريم إلى ذلك بعد أن وضّح أنّها سنّةٌ من سُنن التاريخ؟ قال: ﴿وَحَمَلَهَا الْأنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾. هذه العبارة الأخيرة ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ تأكيدٌ على طابع هذه السنّة، وأنّ هذه السنّة على الرغم من أنّها سنّةٌ من سُنن التاريخ، ولكنّها تقبل التحدّي، تقبل أن يقف

الإنسان منها موقفاً سلبيّاً. هذا التعبير يوازي تعبير ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] في الآية السابقة.

نتائج من الآيتين

إذاً الآية السابقة استخلصنا منها: أنّ الدين سنّةٌ من سُنن الحياة، ومن سُنن التاريخ.

ومن هذه الآية نستخلص: أنّ صيغة الدين للحياة، التي هي عبارةٌ عن العلاقة الاجتماعيّة الرباعيّة، العلاقة الاجتماعيّة ذات الأطراف الأربعة، التي يسمّيها القرآن بالخلافة والأمانة والاستخلاف، هذه العلاقة الاجتماعيّة، هي أيضاً بدورها سُنّةٌ من سُنن التاريخ بحسب مفهوم القرآن الكريم.

فالحقيقة أنّ الآية الأولى، والآية الثانية، متطابقتان تماماً في مفادهما، لأنّه في الآية السابقة قال ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ

---

(١) الروم/٣٠.

للدِّين حَنيفاً فطْـرَتَ الله الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْديلَ لخَلْق الله ذَلـكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[1]. التعبيـر بالدين القيّم تأكيدٌ على أنّ ما هو الفطرة، وما هو داخلٌ في تكوين الإنسان وتركيبه، وفـي مسـار تاريخه هـو الدين القيّـم، يعنـي أن يكون هذا الديـن قيّماً على الحياة، أن يكـون مهيمناً على الحياة. هذه القيوميّـة في الدين، هي التعبير المجمـل في تلك الآية عن العلاقة الاجتماعيّـة الرباعيّة، التي طرحت في الآيتين، في آيـة ﴿فَأَقمْ وَجْهَـكَ للدِّين حَنيفاً فطْـرَتَ الله الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْديلَ لخَلْق الله ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، وآية ﴿إنَّا عَرَضْـنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّـمَاوَات وَالْأَرْضـ وَالْجبَال...﴾. إذاً، فالدين سنّة الحياة والتاريخ، والدين هو الدين القيّم، والدين القيّم هو العلاقة الاجتماعيّة الرباعيّة الأطراف، التي يدخل فيها الله بُعـداً رابعاً، لكي يحـدث تغييراً في بُنية هذه العلاقة، لا لكي تكون مجرّد إضافةٍ عدديّةٍ.

---

(١) الروم/٣٠.

الخلاصة

إنّ أهمّ مصداقٍ يعرضه القرآن الكريم للشكل الثالث من السُنن هو الدين، وقد عرضه على نحوين:

تارةً بوصفه تشريعاً، وطوراً يبيّنه سنّةً من سُنن التاريخ، وقانوناً داخلاً في صميم تركيب الإنسان وفطرة الإنسان، ولكنّها تقبل التحدّي على الشوط القصير، لأنّ العقاب سوف ينزل بالمتحدّي ويعاقب بسنن التاريخ نفسها.

ويجب أن نحلّل عناصر المجتمع على ضوء القرآن الكريم، لنصل إلى مغزى قولنا إنّ الدين سنّةٌ من سُنن التاريخ:

فالآية الكريمة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾، وآية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ... ﴾ تعطينا أدقّ وأعمق صيغةٍ لتحليل عناصر المجتمع؛ حيث إنّ هناك ثلاثة عناصر يمكن استخلاصها من الآية القرآنيّة:

أولاً: الإنسان، ثانياً: الأرض أو الطبيعة، ثالثاً: العلاقة المعنويّة التي تربط الإنسان بالأرض وبالطبيعة، وتربط

الإنسان بأخيه الإنسان (الاستخلاف).

والمجتمعات البشريّة جميعها تشترك بالعنصر الأوّل والعنصر الثاني، وتختلف بالعنصر الثالث وهو العنصر المرن من عناصر المجتمع، فكلّ مجتمعٍ يبني هذه العلاقة المعنوية بشكلٍ قد يتّفق وقد يختلف مع طريقة بناء المجتمع الآخر.

ولهذه العلاقة صيغتان أساسيّتان:

إحداهما صيغة رباعيّة: العلاقة اتخذت صيغةً تربط بموجبها بين أطراف ثلاثة هي: الطبيعة، والإنسان، مع أخيه الإنسان، ولكن مع افتراض طرفٍ رابعٍ أيضاً في هذه العلاقة، وهو خارجٌ عن إطار المجتمع، ولكنه مقوّمٌ من المقوّمات الأساسيّة للعلاقة الاجتماعيّة، وهو المستخلِف أي الله سبحانه. وهذه الصيغة ترتبط بوجهة نظرٍ معيّنةٍ نحو الحياة والكون، قائلةٍ بأنّه لا سيّد ولا مالك ولا إله للكون وللحياة إلاّ الله سبحانه، وإنّ دور الإنسان في ممارسة حياته إنّما هو دور الاستخلاف والاستئمان.

والأخرى صيغة ثلاثيّة الأطراف: صيغة تربط بين الإنسان والإنسـان، والطبيعة، ولكنّها تقطع صلة هذه الأطراف مع الطـرف الرابع، تجرّد تركيب العلاقة الاجتماعيّة من البُعد الرابع، من الله سبحانه، وبافتراض أنّ البداية هي الإنسان، حينئذٍ تتنوّع على مسـرح الصـيغة الثلاثيّة أشكال الملكيّة، وأشكال سيادة الإنسان على أخيه الإنسان.

والقرآن الكريم اعتبر الصـيغة الرباعيّة سـنّةً من سنن التاريخ، وعرضها على نحوين:

تارةً بوصفها فاعليّةً ربانيّةً، أي من زاوية دور الله سبحانه وتعالى في العطاء.

وأخرى بوصـفها وبنحو ارتباطها مع الإنسـان، بما هي أمرٌ يتقبّله الإنسان، ومن زاوية تقبّل الإنسان لهذه الخلافة. والأمانة والخلافة عبارةٌ عن الاستخلاف والاستئمان وتحمّل الأعباء.

والعرض هنا عرضٌ تكوينيٌّ، والقبول هنا قبولٌ تكوينيٌّ، وهو معنى سـنّة التاريخ، وهي سـنّةٌ من الشـكل الثالث تقبل التحدّي ﴿وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.

الفهرس